مقدمة

ديودور الصقلى

لم يهمل التاريخ مؤرخا كما أهمل ديودور..

ألــف ديودور الصقلى كتابا فى تاريــخ العالم أو التاريخ العام على حد تعبيره، منذ فجر التاريخ إلى الحملة التى ســار بها يوليوس قيصر على بلاد الغال سنة ٥٨ق.م. وسماه «خزانة التاريخ». وهى مصدرنا الفرد فى اســتقصاء أخباره وتعرف شخصيته، والوقوف على منازعه وآماله، فقــد خلا الأدب القديم مــن ذكره اللهم إلا النبذة اليســيرة التى أثبتها القديــس جيروم فى القرن الرابع بعــد الميلاد، إذ قال فى حوادث عام ٤٨ق.م. «ديودور الصقلى مؤرخ يونانى أصبح مشهورا» ولعل من الحكمة أن نقــف عند هذا التاريخ باعتباره الســنة التى ظهر فيها أول جزء من كتاب ديودور فاشتهر به.

مســقط رأســه مدينة آجريوم من أعمال صقلية، وهى إحدى المدن القديمــة فى داخــل الجزيرة. وقد زارها هرقل كما قــال ديودور [١و٤] وانتشــرت فيها عبادته انتشــارا لا يضارعه إلا انتشــار عبــادة الآلهة الأوليمبيــة.. ويتحقق لدينا قوله إن آجريوم مســقط رأســه من احتفاله بتاريــخ هذه المدينة الصغيــرة وحرصه على إيراد ما مر بها من حوادث بالتفصيل فى «خزانته».

ولقد عفا التاريخ على آثار هذه المدينة، ولكن شاءت الأقدار أن تبقى منها على حجرين اثنين، نقش على أحدهما اسم ديودور بن أبللونيوس، فهل كان ذلك الحجر شاهدا على قبر المؤرخ؟

أين حصّل ديودور العلم وعلى مَن مِن الأساتذة؟ وكيف اتجه إلى دراسة التاريخ؟ كل هذه أسئلة لا نحير لها جوابا. ولكننا نعلم على وجه التحقيق أنه كان يجمع مادة «خزانته» فى الأوليمبياد الثمانين بعد المائة أى فيما بين عام ٦٠ وعام ٥٦ق.م. وفى هذه الأثناء زار مصر ليصف آثارها ويقف على شيء من تاريخها.

يقول ديودور إنه رأى بعينه أثناء إقامته فى مصر الشعب ثائرا يطالب بموت أحد أعضاء الوفد الرومانى فى مصر لأنه قتل هرة، هذا بالرغم مما كان يستشعره المصريون نحو روما من خوف، وبالرغم من أن بطليموس ملك البلاد لم يكن قد دعى بعد «صديق روما».

ومن المعروف أن بطليموس الحادى عشر قد اعتلى عرش البلاد سنة ٨٠ق.م. وأنه ظل زهاء عشرين عاما مزعزع العرش لأن روما سيدة العالم حينئذ كانت مترددة فى الاعتراف به ملكا للبلاد، ولكن فى عام ٥٩ق.م. اعترفت به روما ملكا بفضل المجهودات السياسية التى بذلها كل من قيصر وبومبيوس، ولكن ليس فى مصادر التاريخ الرومانى أية إشارة إلى ذلك الوفد الذى رأى ديودور أحد أعضائه يثير هذا الشعب الذى أودى بحياته أو كاد.

فإذا رجعنا إلى المؤرخ سيوتونيوس فى ترجمته لحياة قيصر، رأيناه يقرر أن قيصرا قبض من بطليموس هذا مبلغ ستة آلاف طالنط

أو ما يعادل نصف دخل البلاد فى عام، ليضمن له اعتراف روما بشرعية ولايتـه للبلاد، فمن المعقول إذن أن يكون الأمـر قد اقتضى إيفاد بعثة سياسية لدرس حالة البلاد، تمهيدا للاعتراف بالملك. وإن ما نعرفه من شدة حاجة قيصر إلى هذه الأموال، يحملنا على الاعتقاد أنه أوفد البعثة بعد انتخابه قنصلا فى أول يناير سنة ٥٩ق.م. مباشرة.

وإذن فقـد كان ديودور مقيما فى مصر فى عـام ٥٩ق.م. فكم أقام بها؟ لا نسـتطيع أن نجزم برأى فى ذلـك. ولكن الظاهر أنه غادر مصر بعد عام ٥٧ق.م. مباشـرة. فقد بدأ فى كتابه «خزانته» فى عام ٥٦ق.م. ونحن نرجح أن يكون قد بدأ كتابه فى بلاده حيث يسـتطيع أن ينظر فى مراجعه وأسانيده.

أما أنه بدأ فى كتابة «خزانته» فى عام ٥٦ق.م. فنستنتجه من قوله إن آخر من حكم مصر من الأجانب هم المقدونيون يعنى البطالسة، وأن حكمهم دام سـتا وسبعين ومائتى عام [١و٤]. ولما كان ديودور يقرر إن الإسـكندر غزا مصر عام ٣٣١ق.م. [١٧، ٤٩] إذن يكون ديودور قد بدأ كتابة «خزانته» عام ٥٦ق.م.

أمـا آخر الحوادث التى عاصرها ديدور وذكرها فى «خزانته» فهى قوله [١٦، ٧] «إن قيصر يعنى أوجسطس نقل أهل مدينة تورومنيوم من أعمال صقلية من موطنهم وأسكن فيه جالية رومانية» فمتى حدث ذلك؟

يقرر المـؤرخ أبيان فى كتابه «الحـروب الأهلية» [ك٥، ١٠٩] أن هـذه المدينة رفضت أن تفتح لأجسـطس أبوابها حين التجأ إليها

فاضطر إلى لقاء سكستوس بومبيوس فى عرض البحر ولم يكن قد اتخذ لذلك أهبته فدُحِر أجسطس وفقد أسطوله ونجا بجلده فى عام ٣٦ق.م. فلو أن المدينة فتحت له أبوابها لاعتصم بها، وما أقحم نفسه فى تلك الموقعة، وما خسر هذه الخسارة الفادحة، وهذا يفسر لنا سخطه على المدينة وعقابه لها بما ذكر ديودور. ويذكر ديوكاسيوس فى كتابه «تاريخ روما» إنه بعد هزيمة سكتوس بومبى فى عام ٣٦ق.م. عاقب أجسطس كثيرًا من مدن صقلية فلعل تورونيوم كانت من بينهما.

ولكن المؤرخ ديوكاسيوس يذكر [ك٥٤، ٧] أن أجسطس نظم أمور صقلية فى سنة ٢١ق.م. ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن تورومنيوم قد حولت إلى مستعمرة رومانية فى هذا التاريخ المتأخر. ولكنا لا نتصور أن أجسطس قد انتظر خمسة عشر عاما حتى يعاقب هذه المدينة على ما جنت، ولا نرى أن التنظيم الذى يشير إليه ديوكاسيوس كان يستدعى تحويل المدينة إلى مستعمرة رومانية بحال.

ويقرر ديودور [١، ٤] إنه قضى ثلاثين عاما فى تأليف كتابه «خزانة التاريخ» وهذه الفترة الطويلة تشمل على الأرجح السنين التى قضاها فى رحلاته إلى البلاد التى كتب عنها، وليس من المحتمل أن يكون قد بدأ رحلاته بمصر. بل الأرجح أنه زار روما عاصمة العالم كله حينئذ قبل زيارته لمصر فى سنة ٥٩ق.م. وأنه قضى ردحا من الزمن قبل ذلك فى القراءة وجمع المصادر ومراجعة الوثائق. هذا من ناحية...

ومن ناحية أخرى فإن ديودور كما يتجلى فى كتاباته كان شديد الإعجاب بالإمبراطورية الرومانية مشيدا بمجدها، فليس من المعقول أن

يقول إن المقدونين آخر من حكم مصر من الأجانب لو أنه عاش إلى سنة ٣٠ق.م. حيـن ضُمت مصر إلـى الإمبراطورية الرومانية. وإذن فقد توفى ديدور فى إحدى السـنين الواقعة بين سنة ٣٦ق.م. وسنة ٣٠ق.م. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ديودور لم يشر إلى الصراع بين أنطونيوس وأجسطس، ولا إلى بوادر قيام الحرب الأهلية بينهما، ولا إلى اكفهرار جو السياسة فى العالم الشرقى قبل قيام تلك الحرب، لكان من الطبيعى أن نقول إن ديودور مؤرخ ولد سـنة ٩٥ق.م. وبدأ فى تأليف «خزانة التاريخ» سـنة ٦٥ق.م. ومات سنة ٣٥ق.م. تقريبا. وقد ذكرنا أنه بدأ كتابة «الخزانة» سـنة ٥٦ق.م. والمرجح أنه نشـر الأجزاء التى تمـت بمجرد فراغه من كتابتها [٤،١]، وهذا يتفق مع ما قاله سـويداس فى القرن العاشـر بعد الميلاد من أن ديودور اشتهر كمؤرخ فى عصر أجسطس بل قبله.

❁ ❁ ❁

إن العمل الذى تصدى له ديودور هو كما قال تدوين القصص العامة (١ ، ٤) أو الحـوادث العامة [٥، ١] أو هـو بعبارة أخرى كتابة تاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى زمانه.

وإن وصف «عام» شائع مطرد فى كتاباته إلى حد يدفع القارئ إلى التفكيـر فى معنى الكلمة فى ذهنه، وإلى الخـروج من ذلك إلى اكتناه الغرض الذى رمى إليه المؤرخ بتأليف هذا الكتاب.

ففى السـنوات العشـر التى تلـت سـنة ٧٠ق.م. رأى ديودور أن بومبيوس قد أخضع كل شواطئ البحر المتوسط لحكم روما، وكانت مصر

وحدها مستقلة استقلالا صوريا فحسب، فقد كان اعتلاء البطالسة عرش البلاد، رهنا بموافقة مجلس الشيوخ فى روما. وطهر بومبيوس البحر من القراصنة الذين كانوا يعيثون فيه فسادا. وهكذا امتد النفوذ الرومانى إلى أطراف العالم المتمدين حينئذ، أو إلى أقاصى المعمورة كما قال ديودور (٤، ١)، واحتفل بومبيوس بهذا الانتصار الباهر على العالم الشرقى فى عام ٦١ق.م. ولعل ديدور قد شـاهد هذا الاحتفال العظيم، أو هو سـمع وصفه من أفواه الذين رأوه رأى العين.

فقد انتشـرت الأعلام معلنة أن بومبيوس قد أخضع أربع عشرة دولـة، وأدخل خزانة الإمبراطورية عشـرين ألـف طالنط، وضاعف -أو كاد- دخل الإمبراطورية السـنوى. وبدا للمفكرين فى تلك الأيام كأن رومـا قد ورثت تاج الإسـكندر، وأنها تحمل لواء الرسـالة التى وقف عليها حياته، وأن عهدا جديدا من السـلام والإخاء والمسـاواة يكاد يسـود العالم تحت راية روما، وأن النظرية الرواقية فى المواطن العالمى توشـك أن تتحقق الآن وقد أصبحت الإنسانية تؤلف حضارة عامة واحدة، وجمعية إنسـانية عامة، وهكذا أصبح فى وسـع مؤرخ مثل ديدور أن يتحدث عن الحياة «العامة» التى تحياها شعوب البحر المتوسط التى صارت الآن مرتبطة أشد الارتباط تحت راية روما.

وإذا كان قولنـا «الحضـارة الغربيـة» يفيـد حضارات مختلفة أشـد الاختلاف فى أيامنا هذه مثل حضارتى الولايات المتحدة وأسبانيا مثلا، فلا ضير أن يتحدث المؤرخ فى سنة ٦٠ق.م. عن حضارة «عامة» تضم حضارات

اليونانيين والسوريين والأسبانيين والرومانيين. فقد امحت أمام جحافل روما حدود «المدينة الحرة» التى كان المواطن غريبا فى كل مكان عداها، وأصبح تاريخ كل شعب محل اعتبار الشعوب الأخرى لأن هذا التاريخ يبين ما عسى أن يضيفه هذا الشعب من تراثه إلى هذه الحضارة العامة.

وإذن فقد كانت الدوافع لكتابة «الخزانة التاريخية» هى نفس الدوافع التى حذت بالكاتب الراحل هـ.ج. ويلز إلى إخراج كتابه «معالم التاريخ» فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ اصطدم الناس بمأساة الحرب، فلم يدركوا على وجه التحقيق هل هم يواجهون نكبة جائحة على الحضارة الإنسانية أم هم فى مستهل عهد ذهبى جديد للجمعية الإنسانية، وتعلقوا بالأمل وصار كل مفكر يفكر كما لو كان مواطنا عالميا.

كذلك كان المفكر الرواقى يؤمن بعد الحروب الأهلية بأن إخلاصه لفلسفته يدعوه إلى نشر مبادئه فى وحدة الجنس الإنسانى، خصوصا بعد أن اطمأن إلى أن الخضوع لحكومة واحدة لا يعنى فناء الثقافات المتباينة فى ثقافة الدولة المسيطرة، الأمر الذى قامت روما شاهدا على صحته. وأصبح تأليف التاريخ الإنسانى من وجهة النظر الرواقية رسالة فى إضعاف الروح القومية الجامحة، ووسيلة لإقامة صرح التفاهم بين الأمم بتوطيد الروابط الثقافيد بينها. فلا غرو، وتلك رسالة المؤرخ الرواقى، أن يقرر ديودور أن تأليف تاريخ عام، أمر على أعظم جانب من الأهمية للقارئ المحقق [١، ٣].

❁ ❁ ❁

ويدّعي ديودور أنه زار كل الأماكن العظيمة الشأن في أوربا وفي الشرق، وأنه لاقى في هذا السبيل متاعب وأهوالا جساما، ولكن ليس في كتاباته ما يثبت لنا أنه زار بلادا غير روما التي قضى فيها زمنا ما، ووجد فيها كثيرا من المواد الأساسية لدراسته [١، ٤]، ومصر، التي انحدر فيها جنوبا حتى منف. فقد ورد في وصف منف ذكر ضريح لإزيس «يرى إلى وقتنا هذا في حرم معبد هيفا بستوس» [١، ٢٢]. ويذهب البعض إلى أنه زار الأقصر، محتجين على ذلك بأن الدقة التي يمتاز بها وصفه لمعبد الرمسيوم [١، ٤٧] لا تتأتى إلا لشاهد عيان. ولكن إذا كان ديودور نفسه قد عزى الوصف إلى المؤرخ هيكاتيوس، فليس بنا من حاجة إلى افتراض أمر رحلته إلى الأقصر. أما سائر ما ورد في رواياته عن مصر من تفاصيل فقد يكون مستقى من هيرودوت وهيكاتيوس والمؤرخ الجغرافي أجاثار خيديس إلا كنيدى الذي عاش في القرن الثاني ق.م.

ويشير ديودور أحيانا كثيرة إلى الوثائق المصرية الهيروغليفية كأنه اعتمد عليها في إثبات تاريخ البلاد. والواقع من الأمر أنه كان يجهل اللغة الهيروغليفية، فإشاراته إلى النصوص الهيروغليفية مأخوذة من المؤرخ هيكاتيوس.

ونستطيع أن نؤكد كذلك أن ديودور لم يزر بلاد ما بين النهرين لأنه قال إن نينوى تقع على نهر الفرات. ومن حسن الظن به أن ننفي أمر ذهابه إلى أثينا، هذا خير له من أن نقول إنه ذهب إليها ولم يجد في بدائع الأكروبول ما يستحق الذكر.

وقال ديودور إنه اكتســب من الرومانيين فى صقلية معرفة واســعة باللغة اللاتينية [١، ٤]. ولا نستطيع أن نجزم بأنه استعمل فى دراسته تاريخ روما المصادر اللاتينية أم المصادر اليونانية، ويذهب بعض النقاد إلــى أنه كان يجهل اللغة اللاتينية جهلا يــكاد يكون تاما، ولكننا لن نأخــذ برأيهم دون تحفــظ. فلعل معرفته باللغــة اللاتينية كانت بالقدر الذى يسمح له بالنظر فى المصادر ومراجعتها.

❁ ❁ ❁

بدأ ديودور تاريخ العالم بعصر الأســاطير ووقف عند سنة ٥٩ق.م. وهى السنة التى تولى فيها قيصر القنصلية للمرة الأولى. وكانت «خزانة التاريــخ» مؤلفة مــن أربعين جزءا، يظهر أنها كلهــا كانت على حجم واحد. ولم يبق منها إلا الأجزاء الخمســة الأولى، والأجزاء العشــرة من الجزء الحادى عشــر إلى الجزء العشــرين، ووصلت إلينا مقتطفات من الأجــزاء التى ضاعت مقتبســة فى كتب بعض الكتــاب الأقدمين وعلى رأسهم يوسيبيوس Eusebius وعند المصنفين البيزنطيين.

ولقد وضع ديودور منهجا فى المقدمة [١، ٤] يتبين منه أن الكتب الستة الأولى تقف عند الحروب الطروادية. والكتب الإحدى عشر التالية تتناول تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى موت الإسكندر أما الكتب الثلاثة والعشــرين الأخيرة فتروى قصة العالم من موت الإســكندر إلى عام ٥٩ق.م.

ولنفصل موضوعات الأجزاء المختلفة فيما يلي:

الكتاب ١ يتناول تاريخ مصر.

الكتاب ٢ يتناول تاريخ آشور والهند وبلاد العرب.

الكتاب ٣ يتناول تاريخ بلاد الحبشة ويبحث في أصل الآلهة.

الكتاب ٤ يتناول تاريخ الأساطير المتصلة بآلهة اليونانيين الكبرى، وأسطورة السبعة ضد طيبة.

الكتاب ٥ يتناول تاريخ الجزائر الغربية وجزيرتي رودس وكريت. وهذه الأجزاء ليست بذات خطر من الوجهة التاريخية المحضة، لأنها تدور حول موضوعات واسعة لا يسهل حصرها، ولأنها كذلك محشوة بالأساطير والخرافات.

الكتاب ٦ - ١٠ ضاعت، ولم يبق منها إلا مقطوعات تدور أقدمها حول الحروب الطروادية وأحدثها تروى وقائع سنة ٤٨٠ق.م. ومن هذا التاريخ يعتمد ديودور على كتاب المؤرخ إفوروس Ephorus «في التاريخ العام».

الكتاب ١١ يتناول تاريخ الفترة من ٤٨٠ إلى ٤٥١ق.م.

الكتاب ١٢ يتناول تاريخ الفترة من ٤٥٠ إلى ٤١٦ق.م.

ونلاحظ هنا أن ديودور هو الحجة الكبرى في تاريخ الفترة الواقعة بين ٤٨٠ق.م. و٤٣٠ق.م. فقد تناولها ثيوكيديديس باختصار في ثلاثين فصلا فقط.

الكتاب ١٣ يتناول تاريخ الفترة من ٤١٥ إلى ٤٠٥ق.م.

الكتاب ١٤ يتناول تاريخ الفترة من ٤٠٤ إلى ٣٨٧ق.م.

الكتاب ١٥ يتناول تاريخ الفترة من ٣٨٦ إلى ٣٦١ق.م.

ويلاحظ أن هذه الكتب ليست بذات خطر لأن المؤرخين ثيوكيديديس وكرينوفون قد تناولا الفترة الواقعة بين سنة ٤٣٠ق.م. و٣٦٢ق.م بالتفصيل وكلاهما معاصر لحوادثها.

الكتاب ١٦ يتناول تاريخ الفترة من ٣٦٠ إلى ٣٣٦ق.م.

الكتاب ١٧ يتناول تاريخ الفترة من ٣٣٥ إلى ٣٢٤ق.م.

الكتاب ١٨ يتناول تاريخ الفترة من ٣٢٣ إلى ٣١٨ق.م.

الكتاب ١٩ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٧ إلى ٣١١ق.م.

الكتاب ٢٠ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٠ إلى ٣٠٢ق.م.

ويلاحظ أن هذه الكتب عظيمة الشأن من الناحية التاريخية، ففى تاريخ الفترة الواقعة بين ٣٣٦ وسنة ٣٢٣ق.م. ديودور هو العمدة الأكبر فهو يسرد حوادثها مسلسلة سنة بعد أخرى، ويعطى بذلك صورة شاملة لعهد فيليب المقدونى، وهو فى الفترة الواقعة بين سنة ٣٣٦ وسنة ٣٠٢، يسد الثغرات التى تقع بين المؤرخين الأقدمين. فيكمل ما يدور فى تواريخهم من نقص. أما عن تاريخ خلفاء الإسكندر فديودور هو المرجع الوحيد فى أيدى المؤرخين، ولذلك كان للكتب ١٨ و١٩ و٢٠ شأن كبير.

الكتب ٣١ – ٤٠ تتناول الفترة الواقعة بين ٣٠١ وسنة ٦٠ق.م. ولم يبق منها إلا مقطوعات قليلة.

❀ ❀ ❀

والآراء متضاربـــة فى أمر طريقة ديودور فى التأليف. فيرى البعض أنه يعتمد فى تاريخ عصر ما على مؤلف واحد يختاره، ثم يسد ما يبدو له من أوجه النقص من مؤلفين آخرين، ولكننا لا نســتطيع أن نقر هذا الرأى، فإن الكتاب الأول «فى مصر» يثبت أنه رجع إلى مصادر كثيرة، وأنه اســتوعبها كلها، وأنه بدأ فى الكتابة بعد دراسة طويلة لمراجعه، وأنه يذكر أحيانا مصادره، ويغفل ذكرها أحيانا أخرى.

ويقول ديودور إن تأليف كتاب فى التاريخ العام عمل شاق [١،٣] لأن مواد الدراســة متفرقة فى كتب كثيــرة، والآراء فيها متباينة تباينا شديدا، ولعله اختار هذا النحو من القول لإبلاغ القارئ أن ما فى الكتاب مســتقى من مصادر ســابقة، هذا إلــى أن فى اختيار العنــوان «خزانة التاريــخ» ما يشــي إلى أن ديــودور يرى أن تاريخــه لا يعدو أن يكون ملخصا وافيا لتاريخ مطول فى مصادر متفرقة.